فلما فرغ من قراءة كتابى قال : « إن لك خطا وإنك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، إنا سفر مرملون» . قال فناداه رجل من طائفة الناس. قال أنا أجوزه. ففتح رحله فإذا هو يأتى بحله صفورية فوضعها فى حجرى ، قلت : من صاحب الجائزة؟ قيل لى عثمان ، ثم قال رسول الله : «أيكم ينزل هذا الرجل» ؟ .

فقال فتى من الأنصار أنا، فقام الأنصارى وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله فقال : «تعالى يا أخا تنوخ» فأقبلت أهوى حتى كنت قائما فى مجلسى الذى كنت بين يديه ، فحل حبوته عن ظهره وقال : «ها هنا إمض لما ضمرت به» فجلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم فى موضع غضون الكتف مثل الحمصة[1] الضخمة»[2] .

وهكذا نرى تدبير الله تعالى للدعوة . حين يرسل قيصر الروم رسوله محملا بوصيته . لكى يدير حوارا على نحو مدروس .

الأمر الذى أسفر فى النهاية عن تدعيم الموقف الإسلامى على نحو يثبت الله به دعائم المسلمين من الناحية . العسكرية . والفكرية على نحو مادار . وهذا بعض مايفهم من هذه المحاورة التى تجلت فيها .

مواصفات القيادة المؤمنة :

من خلال هذا الموقف تتبدى مواصفات القائد المؤمن :

١ — رحابة الشخصية التى تستوعب آلام الناس وآمالهم .

٢ — قدرته على التعامل بنجاح مع الإعلام المعادى .

---

١ — أى مثل النجمة .

٢ — هذا الحديث تفرد به الإمام أحمد ، أنظر البداية والنهاية جـ ٥ ص ١٤ ، ١٥

٣ — إرخاء الحبل للمفاوض . حتى يهزم فى النهاية بالضربة القاضية .

٤ — تهيأ الجو السلمى للدخول فى دين الله أفواجا .

٥ — عاد رسول هرقل بما كسر من معنويات قيصر الروم .

٦ — حققت الدعوة بانتصار المفاوض المسلم الحكيم انتصارات أخرى خارج الحدود .

انتصار بلاد ماء :

أيقنت القبائل التى كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أو أنه .

فوفد على رسول الله ﷺ . يحنة بن رؤبة صاحب أيلة[1] . وهو أحد الأمراء المقيمين على الحدود، وقد وجه اليه رسول الله ﷺ رسالة أن يزعن أو يغزوه ، فأقبل يوحنا على صدره صليب من ذهب ، وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة . فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية [2] .

وكان من متنصرة العرب.

ثم أتى رسول الله أهل جربا، وأذرع . وتيماء .

فأعطوا رسول الله ﷺ الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا فهو عندهم ، كما كتب لصاحب أيلة :

[بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله

(١) أيلة : مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير ، وهى مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا . وبها فى اليهود عهد لرسول الله ﷺ ، السيرة النبوية لابن هشام حـ ٤ ص ٨٩ ، الرحيق المختوم ص ٥١٥ ، أنظر نبض الرسالة ص ٣٢٦ د. ابراهيم أبو الخشب.

ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معه من أهل الشام [١]، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لايحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقـــا يريدونه ، من بر أو بحر][٢].

هكذا ترى أن الأمر أصبح لصالح المسلمين، وتوسعت حدود الدولة الإسلامية حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير . ولم يكن رسول الله ﷺ بحاجة إلى قتال بعد انسحاب الروم داخل بلادهم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمنة عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية ، لولا خيفة انتقاض ، أكيدر بن عبد الملك الكندى النصرانى أمير دومة الجندل ، ومعاونته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته .

لذلك بعث رسول الله ﷺ إليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة الجندل فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى « حسان » يطاردان بقر الوحش ، ولم يطق خالد مقاومة تذكر وأخذ [أكيدر] أسيرا ، وهدده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها . وفتحت المدينة أبوابها فداء لأميرها . وساق خالد منها ألفى بعير . وثمانمائة شاة . وأربعمائة وسق من بر . وأربعمائة درع . وذهب بهـــا ومعه أكيدر حتى لحق بالنبى ﷺ ، فعرض على أكيدر الإسلام . فأسلم وأصبح حليفا له[٣].

---

(١) فى السيرة النبوية لابن هشام بزيادة (أهل اليمن) بعد أهل الشام وقبل أهل البحر .

(٢) المرجع السابق حـ ٤ ص ٨٩ ، ٩٠ ، انظر الرحيق المختوم ص ٥١٥

(٣) فيض الرسالة د . ابراهيم أبو الخشب ص ٣٢٧ ، ٣٢٨

التماس الأعذار للمخلصين :

ربما كنت صاحب رسالة . وأمل الناس فيك خيرا .

لكن تقاصرت إمكاناتك. فالمنطق الإسلامى هنا هو: تقدير ظروف مثل هؤلاء الناس . إبقاء عليهم :

وإدخارا لهم . لموقعة أخرى .

واحتفاظا بثقة الناس بهم بعيدا عن الخلل .

وهو فى النهاية حسن ظن بالمسلم . يقى به الله تعالى الأمة من الخلل لتكون دائما مستعدة للنزال فى المستقبل .

وهذا بعض ماتفهمه من موقفه ﷺ فى هذا المجال . حيث لم ينس النبى ﷺ فى ذهابه وإيابه أصحاب القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغمين والعبرات تملأ عيونهم . فيقول : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، فقالوا يارسول الله وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر»(١).

بهذه المواساة الرقيقة كرم النبى ﷺ الرجال الذين شجوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم ، فأصلح بالهم وأزاح هما ثقيلا عن أفئدتهم.

المخلفون :

لما مضى رسول الله ﷺ سائرا للغزو ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يارسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

---

(١) صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٠٣ عن أنس بن مالك : أن رسول الله رجع ... الحديث .

من النفر الذين لحقوا برسول الله ﷺ .. أبو خيثمة .. وعمير بن وهب ... وأبو ذر الغفارى .

أما أبو خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله فى يوم حار . فوجد إمرأتين له فى عريشين[1] لهما فى حائطه[2] قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ فى الضح[3] والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد؟ وطعام مهيأ؟ وإمرأة حسناء فى ماله مقيم ؟ والله ما هذا بالنصف ؟ ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيأ لى زادا ، ففعلتا . ثم قدم ناضحة[4] فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك . وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحى فى الطريق ، يطلب رسول الله ﷺ فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب .. إن لى ذنبا ، فلا عليك أن تخلف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ .. ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك ، قال الناس هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة : فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة .. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : أولى لك[5] يا أبا خيثمة...

---

(١) العريش : ما يستظل به .
(٢) الحائط : البستان .
(٣) الضح : الشمس .
(٤) الناضح : الجمل الذى يسقى عليه الماء .
(٥) أولى لك : كلمة تهديد معناها . الويل لك .

ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول خيرا، ودعا له بخير.

• أما أبو ذر[1] فقد أبطأ به بعيره، فقالوا يا رسول الله تخلف أبو ذر. فقال: دعوة، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه. وتلوم[2] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيا.. ونزل رسول الله فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ كن أبا ذر[3]، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر.. يمشى وحده.. ويموت وحده.. ويبعث وحده.

• ولكن سبقهم أهل الريبة الذين يلتمسون للفرار الأعذار، وتقعد بهم كراهيتهم للإسلام عن إسداء أى عون له.. فيهيأت أن يعدوا للخروج عدة.. أو يتمنوا للخارجين عودا.

ومن أسخف الأعذار التى تحملها المنافقون الذين قعدوا ما قاله الجد بن قيس: وقد عرض عليه رسول الله ﷺ الجهاد: يا رسول الله.. أو تأذن لى ولا تفتنى؟ فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر (الروم) ألا أصبر.

---

(١) أبو ذر: اسمه جندب بن جنادة، وقيل زيد عشرته، وقيل جندب بن عبد الله، وقيل بن السكن.

(٢) تلوم: أى تمهل.

(٣) كن أبا ذر: لفظ الأمر ومعناه: دعاء كما تقول أسلم سلمك الله.

فأعرض عنه رسول الله وفيه نزلت الآية الكريمة :

« ومنهم من يقول إئذن لى ولاتفتنى . . ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[١] .

وغيره من المنافقين الذين كذبوا الله ورسوله .. قعدوا دون إذن .. وهم بضعة وثمانون رجلا[٢] .. وقد جاءوا لرسول الله ﷺ بعد عودته .. يعتذرون إليه ، بأنواع شتى من الأعذار ، ويحلفون له ، فقبل منهم رسول الله علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله . رأينا صورا مشرقة للمؤمنين . . وصورة قاتمة . . للمنافقين . . وكيف ذلك ؟ هذا أبو خيثمة . . وعمير بن وهب . . وأبو ذر وصلوا فصلا وكان ما كان من رسول الله ﷺ . . أما الثلاثة الذين خلفوا . . ولم يصلوا فكان لهم شأن آخر يتكفل كعب بن مالك رضى الله عنه بشرحه فيما يلى : النفر الثلاثة هم : كعب بن مالك . . ومرارة بن الربيع . . وهلال ابن أمية . .

حديث كعب بن مالك هو :

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدا تخلف

---

(١) سورة التوبة . . الآية رقم ٤٩ ، انظر السير النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٨٣ .

(٢) هذا ما ذكر ابن القيم فى زاد المعاد ، وأما الواقدى نذكر أن هذا العدد كان من منافقى الأنصار ، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلا من بنى غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبى ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء وكانوا عدداً كثيراً . . انظر فتح البارى جـ ٨ ص ١١٩ .

عنها .. إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عددهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها .

فكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ، ومفاوز ، واستقبل عددا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع النبى ﷺ عدد كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ — يريد بذلك الديوان — قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا يظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليهما أصعر ، فتجهز رسول الله والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فلم أقض من جهازى شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت ، فلم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج النبى ﷺ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضر فى همى ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بم أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله قد أظل قادما زاح عنى الباطل ، حتى عرفت أنى لا أنجو منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح

رسول الله ﷺ قادما .. وبدأ بالمسجد .. وجاءه المخلفون فاعتذروا وحلفوا وقبل منهم رسول الله علانيتهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فسلمت عليه .. فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قلت : يا رسول الله إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، قم حتى يقضى الله فيك ، فقمت ، وثار رجال من بنى مسلمة ، فاتبعونى وقالوا : والله ما علمناك أذنبت قبل هذا، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ .. بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال كعب : فوالله مازالوا يؤنبونى ، حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال ابن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه . فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا ، فكنت أشب

القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ ، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي معه وأسارقه النظر . فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى طال ذلك علي من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت مناشدته فقال الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة ، إذا بنبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني ، فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأته : هذا أيضا من البلاء ، فتيممت به التنور فسجرته به ، حتى ، إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبث الوحي إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا : بل اعتزلها فلا تقربها ، وأرسل إلى صاحبي بذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك تكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

وذهبت امرأة هلال إلى الرسول ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟

فقال لا ، ولكن لا يقربنك ، قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، قال كعب : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه فقال كعب : لا أستأذن بها رسول الله

ﷺ وما يدريني ماذا يقول لي إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، قال كعب : ثم صليت صلاة الفجر صباح الخمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عنا ، قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج : وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا . فذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض رجل إلى فرسا ، وسعى ساع من أسلم قبلي ، وأوفى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي . فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين ألبستهما ، وانطلقت أتأم رسول الله ﷺ ، فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ، ويقولون لتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، قال : كعب فكنت لا أنساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

قال : لا بل من عند الله ، كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر . . وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال رسول الله ﷺ : أمسك بعض مالك فهو خير لك .

فقلت فإنى أمسك بسهمى الذى بخيبر ، وقلت يا رسول الله ، إن الله إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما علمت أحدا من المسلمين ابتلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام أحسن مما ابتلانى ، ووالله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك إلى يومى هذا ، وإنى أرجوا أن يحفظنى الله فيما بقى ، قال : فأنزل الله [لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ... يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين] (١) .

فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله — ﷺ — أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ... قال : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون] (٢) يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (٣) .

وقال كعب : وكان تخلفنا — أيها الثلاثة — عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا ، حتى قضى الله فيه بقوله : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله تواب رحيم » (٤) . وليس الذى ذكره الله مما خلفنا عن الغزو . وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عن

---

(١) سورة التوبة الآيات ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٩٥ .

(٣) سورة التوبة الآية رقم ٩٦ .

(٤) سورة التوبة الآية رقم ١١٨ .

حلف لرسول الله واعتذر إليه فقبل منه[1]، هذه الصور الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة ، كما رواها واحد منهم والتى سنخرج منها بدروس فى نهاية المطاف . . بعد أن نعرج على عودة الجيش وقائده إلى المدينة .

العودة من الغزو إلى المدينة :

شاءت حكمة الله عز وجل أن يكتفى من المسلمين بذلك الجهد العظيم الذى بذلوه .. والمشقات الجسيمة التى تحملوها ، إذ قطعوا تلك المسافات المضنية بين المدينة وتبوك .

ولقد كانت رحلة عجيبـــة فى عذابها وأتعابها ، ومشاهد العسر التى فيها .

وما الجهاد الذى أمر الله به ؟ هل هو إلا بذل النفس والجهد فى سبيل شرعه ودينه ؟ .

إن هذا كل ما يريد الله من عباده .

ومعاذ الله أن يكون بحاجة من وراء ذلك إلى معونتهم . . لرد كيد الكافرين ، أو إدخال معنى الهداية والإيمان فى قلوب الحاقدين .

وقد بذل (جيش العسرة) فى هذه الغزوة العسيرة المضنية .. المال .. والجهد . . وضحوا بالراحة فى أجمل فرصها . .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى جـ ٨ ص ٩٢ — ١٠٠ بطوله ، وأخرجه مسلم جـ ٨ ص ١٠٦ — ١١٢ . راجع البداية والنهاية ص ٢٢، ٢٣، جامع البيان لابن جرير الطبرى جـ ٧ ص ٥٨ — ٦١ ، والسيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٩٣ — ٩٧ ، فقه السيرة للبوطى ص ٣١١ — ٣١٣ ، فقه السيره للغزالى ص ٤٣١ — ٤٣٥

واستبدلوا به العذاب فى أقسى صوره وأشكاله .

ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم ومحبتهم له ، فحق لهم النصر ، والتأييد ، وأن يكفيهم الله القتال ، برعب من لدنه يقذفه فى قلوب أعدائهم ، فيتفرقون عنهم ويخضعون لحكم الله فيهم .

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك ، مظفراً منصورا ، لم ينالوا كيداً وكفى الله المؤمنين القتال .

وقدم رسول الله ﷺ المدينة . . ولاحت له معالمها من بعيد قال : هذه طابة . . وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه[1] .

وتسامع الناس بمقدمه فخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البـــدر علينا من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعـــا لله داع

لقد قوبل جيش العسرة فى مرجعه هذا بحفاوة بالغة .

وكان قد غاب خمسين يوماً ، حيث خرج فى رجب وعاد فى رمضان قضى من هذه المدة عشرين يوما — أو بضعة عشر — فى تبوك على اختلاف الروايات ، والبواقى قضاها فى الطريق ذهابا وإيابا ، وهى آخر غزواته ﷺ .

فتح الطريق أمام الدعوة :

كان ذلك من الله سبحانه فاتحة خير كثير لعزة الإسلام والمسلمين حيث تشاورت ثقيف . . وأرسلت وفدها إلى رسول الله — ﷺ — برياسة كنانة بن عبد ياليل . . فتحاوروا مع رسول الله ﷺ . قال

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما .

سعد فى طبقاته — يروى عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه — فدخلت ثقيف فى الإسلام ، فلا أعلم قوما من العرب ، بنى أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاما ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه ، منهم (١) .

وتتابعت وفود العرب بعد ذلك على رسول الله ﷺ معلنة الدخول فى دين الله ، قال ابن إسحاق : لما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، حيث كانت العرب تتربص بالاسلام أمر هذا الحى من قريش ، إذ كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهـــل البيت والحرم ، وصريح ولد اسماعيل عليه السلام ، وقادة العرب .

فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله تعالى أفواجا ، كما قال الله سبحانه : [إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا] (٢) .

سجل هذه الأحداث :

مما سبق يتضح لنا أن السجل الواعى لغزوة تبوك هو « سورة التوبة » التى عرضت لكل لون من ألوان النفاق الذى ظهر به هؤلاء الذى لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر فى حقيقته المكشوفة لذلك سماها علماء التفسير ، بالفاضحة ، لأنها فضحت أمرهم وهتكت أسرارهم .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص٧٨

(٢) سورة النصر الآيات ١ — ٣ .

وكما بينت موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين اتخـــذوا مسجد الضرار .

وكذا الثلاثة الذين خلفوا ، وعلى الجملة فإن هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المجابهة والالتحام مع الروم ، إلا أنها كانت مجابهة والتحاما ، لمرضى القلوب والأفئدة الذين تبينوا لرسول الله ﷺ على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء ولا بهرج .

وفى الوقت الذى تكامل للدولة الإسلامية نفوذها الذى لا يمكن لأحد أن ينكره أو يزاحمه .

فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله ﷺ إلى الغزوة البعيدة الشقة .

لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق ، وإلا العاجزون الذين عذرهم الله ، أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحا من العسرة ، وأصلب عودا من الشدة .

ثم تتجلى التقوى التى تاجىء المخطىء إلى الصدق والإقرار ، والأمر بعد ذلك فله ، فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ، يجىء التهاف للذين آمنوا جميعا أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة .

[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين](١) .

ويجىء عقب ذلك مباشرة التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، فهم أصحاب الدعوة ، وهم الذين آووا ونصروا وبايعوا — رسول الله صلى الله عليه وسلم — مع الوعد بالجزاء السخى للمجاهدين ،

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ١١٩

للذين لم يؤثروا بأنفسهم فى عسر أو يسر ، فى شدة أو رخاء ، فى حر أو برد [١] .

[ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون] [٢] .

وفى هذه التوجيه إشارة لأصحاب الدعوة فى كل جيل ، فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله ﷺ فى سبيل هذه الدعوة وهو يزعم أنه صاحب دعوة ، وأنه يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] .

دروس من قصة .

الثلاثة الذين خلفوا :

١ — الخطأ والتقصير واردان فى قاموس العظماء ، لأنهم بشر ، وليسوا ملائكة .

٢ — صراحة المؤمن وشجاعته الأدبية الحاملة على الاعتراف بالذنب والتى تضع قدمه على طريق العودة إلى الحق .

---

(١) ظلال القرآن ص ١٧٣٣ ج ٣ .
(٢) سورة التوبة الآيات ١٢٠ — ١٢١ .
(٣) ظلال القرآن ج ٣ ص ١٧٣٣

٣ — اهتمام الصحابة على أرض المعركة بمن تخلف منهم من المخلصين، وكان الظن أن يستغل الموقف للتنويه ببطولاتهم على حساب من تخلف من إخوانهم .

٤ — حكمة القائد التى لم تدمر البقية الباقية من نفسية النادم الهارب العائد إلى طريق الخلاص .

٥ — ما ظهر من ملامح المنهج الإسلامى فى إعداد الفرد وهذا يتجلى فى حرمانهم من مقاربة زوجاتهم ، وهم بين أيديهم .

٦ — صدق الالتزام مع وجود الزوجة إلى جانبه .

٧ — كان الولاء للحق وحده ، عندما تسور كعب منزل ابن عمه وناداه فلم يجبه لأنه ملتزم بالحق ، لا بالدم [أبى الإسلام لا أب لى سواه] .

٨ — المرأة فى ظل الإسلام تظهر على أو فى معانى الإيمان ، مما يجعل لها دورا بارزا فى المواقف الحاسمة .

٩ — الطبيعة البشرية أسيرة الإحسان دائما ، ليتعلم الدعاة ، يظهر هذا من قول كعب « فكنت لا أنساها الطلحة ، لأن طلحة بن عبد الله هو الذى قام وهرول حتى صافح كعب وهنأه بالتوبة ، ولم يفعل ذلك غيره من المهاجرين .

١٠ — لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة يتحدثون عن الشجاعة خطبا ، وإنما تحدثوا عنها عمليا ، وصنعوها صنعا على أرض الواقع .

الدعاة اليوم :

مدعوون إلى تملى هذه الدروس ومحاولة تطبيقها ليصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أولها والله ولى التوفيق .

دكتور / ابراهيم عبد الرحمن عثمان
مدرس الدعوة الثقافية الإسلامية
كلية أصول الدين والدعوة
بالمنوفية